# تعريف ونقد

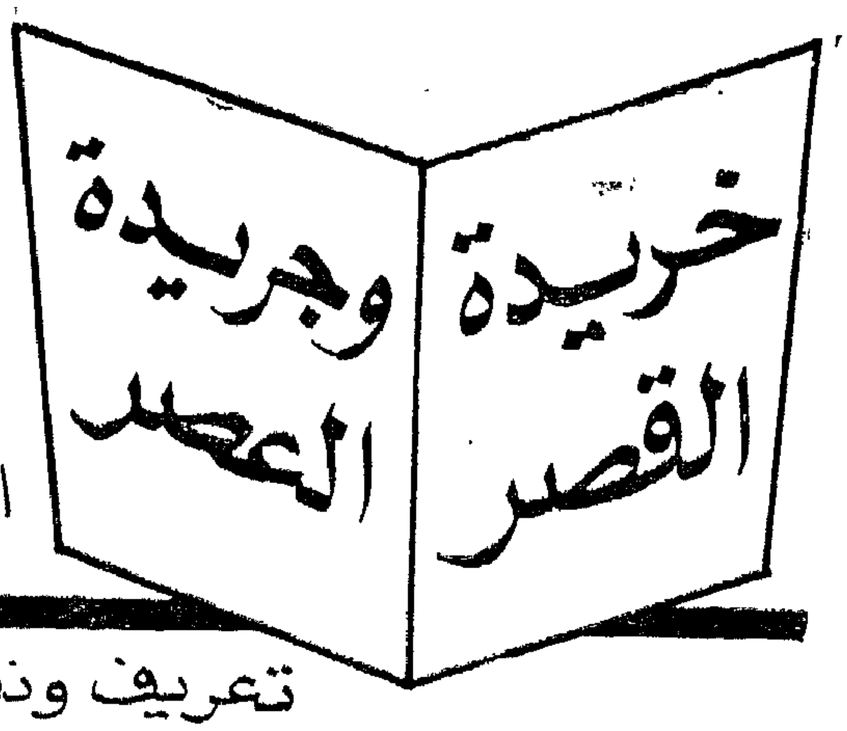

# خريدة القصر وجريدة العصر

## للعماد الأصبهانى

الجزء الرابع

حققه وشرحه

الأستاذ محمد بهجة الأثرى

تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

**تمثل** خريدة القصر وجريدة العصر للأديب الكاتب السياسى المؤرخ «العماد الأصبهانى» لونا طريفا من كتب الشعر والشعراء المؤلفة وفق القرون ، والحاوية للشعر والشعراء فى عصر معين ، لا على مدار العصور كما فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . وهى بهذا اللون الطريف والمذاق الجميل تقدم لنا نماذج الشعر العربى فى القرن السادس الهجرى وهى نماذج لاتخص قطرا عربيا معينا بذاته ، ولا تقتصر على بقعة عربية دون بقعة ، بل تمتد لتشمل الوطن العربى الفسيح كله مابين مشرق ومغرب . وقد خص المؤلف كل أرض عربية بقسم من «خريدته» فللمغرب والأندلس والشمال الإفريقى قسم صدر منه جزءان فى تونس ، ولمصر قسم صدر من زمن غير بعيد ، وللشام قسم بدأ صدوره فى دمشق منذ سنة ١٩٤٩ ، وللعراق قسم كبير صدر منه الجزءان الأول والثانى منذ زمن ، كما صدر أخيرا الجزء الرابع منه بمجلديه الضخمين بتحقيق الأستاذ العلامة الكبير محمد بهجة الأثرى ، أما ثالث الأجزاء العراقية فلما يصدر بعد ، استكمالا للتحقيق كما يصرح محققه الفاضل .

والذى صنعه العماد الأصبهانى فى الخريدة هو الذى صنعه من قبله الثعالبى فى «اليتيمة» وصنعه الباخرزى فى « دمية القصر » والخطيرى فى « زينة الدهر » ثم صنعه بعدهم الشهاب الخفاجى فى «الريحانة» والمحبى فى «نفحة الريحانة» ولاتزال وزارات الثقافة فى البلاد العربية

اليوم تحرص على إصدار مجموعات ومختارات من الشعر المعاصر مع تعريفات وجيزة بالشعراء المختار لهم لتكون مرآة الشعر الحديث .

ولن تسلم مجموعة ضخمة من الشعر فى عصر واحد من أن يجتمع فيها الغث والسمين والجيد والردىء ، فليس من المعقول أن يجرى الشعر المختار كله على نسق واحد من السمو والارتفاع ، أو أن يكون كله موحد المستوى ، مستوى النفس ، بل لابد أن تصادفنا فيه القمم والسفوح والحب والزؤان . وهذا الخلاف فى المستوى وفى النفس وفى الأهداف والأغراض والمعانى هو دلالة أكيدة على اختلاف المواهب والمستويات عند الناس ، وهو يصور الحياة تصويرا صادقا ، واضحا فلا يعرض جميلا ولا يحجب قبيحا . وإنما يجمع بين الجمال والقبح كما تجمع الحياة عادة بين النقائض ، وتضم بين المتناقضات والأضداد .

ولن يكون العماد الأصبهانى أو غيره من مؤلفى المجاميع الشعرية لعصر من العصور أمناء على قضية الأدب والجمع الشعرى إذا قدموا بعضا من النماذج دون بعض : أو آثروا لونا من الشعر على لون أو أبرزوا غرضا من الأغراض دون غرض فإن الأمانة تقتضى أن يقدموا نماذج لكل ماصدر من الشعر عندهم . وقيل فى عصرهم مهما كانت درجته ومهما كانت بضاعته ، لأن المفروض أنهم لايقدمون نماذج رفيعة أو أمثلة جيادا فحسب ، ولكنهم يقدمون صورة كاملة للشعر العربى فى عصرهم بما تحويه من سمو وهبوط ، ورفعة واتضاع .

ومن هنا كان حرص العماد الأصبهانى على أن يجمع فى كتابه الضخم كل لون شعرى ظهر فى عصره ، وأن لايحاول إبراز بعض الأغراض الشعرية على حساب البعض الآخر. وإن كان لم يمسك فى يده مكيالا يكيل به مااختاره من كل غرض ويوفق بين المكاييل حتى لايطغى اختيار على اختيار .

فالرجل كان جامعاً ناقلا راوياً مسجلا ، فلا يعنيه من الجمع المقدار والكم ، ولكن يعنيه الكيف ، حتى تكون أغراض الشعر فى عصره ممثلة على أقرب الوجوه دقة ، وأصدقها تمثيلا .

ولا شك أن « العماد » قد وقع له من الشعر العربى فى عصره شىء كثير ، بحكم طبيعته الأدبية الواضحة ، أو بحكم صلاته الاجتماعية الكثيرة التى هيأتها له نيابته عن الوزير ابن هبيرة فى « واسط » وبحكم مركزه السياسى المرموق الذى جعل داره مهبط الأدباء من كل حدب ، وأخيرا بحكم ذلك الميل الخاص الغالب عليه نحو الشعر العربى ، وتعاطفه معه ، وعنايته به .

ولا شك أنه لم يكن فى جمعه لذلك السيل الغامر من الشعر حاطباً ، ولا خابط ليل . لقد كان ينتقى ، ويؤثر قولا على قول ، ويستبعد ما يراه أهلا للاستبعاد . وقد يقرأ المجموعة من الشعر لشاعر معاصر تقع له بأى طريق من طرق الإعارة أو الإهداء أو الشراء ، فلا يخلص منها فى النهاية له إلا عددٌ من الأبيات يؤثرها بالرواية ، ويخصها بالتسجيل .

ألم يحدثنا — وهو صادق — فى خلال ترجمته الوجيزة للشريف أبى هاشم إسماعيل بن المؤمل الرشيدى الواسطى بأن أشعار هذا الشاعر التى نظمها جمعت فى مجلدة ضخمة تنيف على ستة آلاف بيت ، وأنه طالعها كلها فلم يختر منها إلا هذه الأبيات :

مضى الود والأيام ما سمحت لنا
بشرب مدام أو بقرب نديم
ونحن عطاشٌ ، والموارد جمة
يوطدها قوم لكل لئيم
على الراح والأقداح منى تحيةٌ
إلى أن أراها فى بنان كريم !

والذى لا يصفو له إلا ثلاثة أبيات من ٦ آلاف بيت ليضعها فى موسوعته الشعرية هو رجل لا يجمع حيثما اتفق ، ولكنه يتأنق فى الجمع ، ويحسن فى الاختيار .

على أنه قد تصادفنا فى أشعار الخريدة أبيات ومقطعات فى الإحماض والإفحاش فى الهجاء كنا نرجو لو خلا منها الكتاب ، حتى لا يخدش حياء القارىء بمعان لا تحيى خلقاً ، ولا تنشر فضلا ، ولا تقيم فضيلة ، بل هى ضرب من الفحش والمجون واللغو الآثم الذى قد يحرك غرائز الشر ، ويثير المضاحك ، ولكنه لا يعبر عن نبل أو حياء.

وأى شرف فى أن نلتقى فى الخريدة برجل سليط اللسان ، فاحش القول ، لا يتورع

أن يهجو زوجته بأقبح هجاء ، ويهجو ولده بأفحش قول ؟ وإذا كنا احتملنا هذا من أمثال الحطيئة ، وجرير ، والفرزدق ، والبعيث ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، قبل القرن السادس الهجرى ، فلماذا نصاب به من جديد فى هذا القرن الذى يتميز بلقاء العرب والمسلمين ضد الصليبيين؟ ولماذا نجد فى عصر الجهاد الإسلامى ضد الغرب المتعصب جماعة من الشعراء الذين يَبدُون وكأنهم فرغوا من هموم الدنيا ، ومشاغل الحياة . فيهزلون حين ينبغى أن يجد الجد ، ويمزحون حين تدعوهم الحياة إلى الرصانة والوقار ؟

الحق أن العماد لم يخرج عن مفاهيم زمانه حين اضطر أن يروى فى خريدته شعرا هابطاً فى الهجاء ، والمجون ، فهو ناقل صورة يريد أن يكون أميناً على أدائها . وقد كان الرجل معتدلا فى هذا المجال ، فلم يسرف فى عرض هذه الألوان النابية .

والحق أيضا أن محقق الكتاب العلامة الأستاذ محمد بهجة الأثرى – وهو رجل فيه خلق ودين وحياءٌ – قد ضاق بمثل هذه النماذج الهابطة من شعر الهجاء فى الخريدة ، فلم يسكت عليها ، ولم يقف أمام إيرادها صامتا ، بل نراه حين يطفح به الكيل ، ويسيل السيل يتفجر كالبركان معلقا على هذا الشعر بمثل قوله : « وهذه القطعة من فسولة اللفظ والمعنى والغرض فى أحط منازل الكلام » ص (٤٩١) . أو بمثل قوله فى هامش ص (٥٤٦) : « هذا البذاء امتداد لبذاء جرير والفرزدق والأخطل ثم ابن الرومى والمتنبى : وأضرابهم ممن عدموا المروءة وضعف فى نفوسهم وازع الدين ، و نوازع الطبع الشريف . فاستباحوا فحش القول وأشاعوه فى المجتمع العربى الإسلامى . وقد كان يحسن المؤلف ، وهو هو ، أن ينزه كتابه من مثله ، ويقتصر على رواية النظيف من هجاء الشاعر مجتزئاً بالاشارة إلى بذائه الذى أفضى إلى اغتياله . . ) أو بمثل قوله فى هامش ص(٧٥٩) : « . . . وكان اللائق بالمؤلف تنزيه كتابه من هذه الأقذار ) فأنت ترى أن المحقق الفاضل هنا ساخط على اختيار هذه الأهاجى الفاحشة ، ضائق بها صدره . ويخيل إلى أنه لو لم يكن المجال مجال تحقيق نص قائم موجود ، لأبعد المحقق هذه النماذج

ونفاها من الكتاب كله ، ولكنه وفقا لأمانة العلم ، وتوفية الأداء ، لا يملك هذا ، ولم يملك إلا أن ينفس عن صدره بمثل هذه التعليقات ، ولعل ذلك أضعف الإيمان ! !

والحق أن هذا الإحماض ورواية المقذع المفحش قد وقع فيه نفر من المصنفين العرب والمسلمين ممن كان لا ينتظر وقوعه منهم ، كالراغب الأصفهانى فى محاضراته ، والغزولى فى مطالع بدوره ، بل وقع فيه صاحب عيون الأخبار أحيانا ، ووقع فيه النويرى فى نهاية الأرب ، ووقع فيه صاحب كتاب « قطب السرور » الذى صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق من زمن غير بعيد .

على أنه لا باس برواية النادر من الهجاء إذا لم يكن فيه إقذاع ولافحش ولا بذاء . ولعل من ذلك ما رواه العماد عن الشاعر « الصارم مرجى البطائحى » حين هجا ثلاثة من الكبراء فى وقته قائلا :

قوم إذا قام قوم للعلا قعدوا ... كأننا الغر من قريش سموا

وإن تنبه قوم للعلا ناموا ! ... وأنت ما بيننا أبو لهب !

ويظهر أن هذا اللون من الهجاء القاتل غير البذئ ولا الماجن قد راق لدى العماد ، فعقب عليه قائلا : « هذا البيت الأخير نادر فى الهجاء ، يعجز عنه فصحاء البلغاء » .

وقد كان العماد يستجيد المعانى النادرة الجيدة حتى فى الهجاء ، ويعلق عليها بما يكشف عن قيمتها . فقد علق على أبيات هجاء قالها « الصارم مرجى » فى هجو شقيق له بقوله :( والمعنى فى غاية الحسن لم يسبق إليه )

ولا بأس هنا من إيراد هذه الأبيات ما دامت لا تخل بمبدأ الشرف والعفة ، وصيانة اللسان ، وإن كانت تخل بالمروءة وحقوق الرحم حين يهجو أخ أخاه :

أى حرام من الحلال أخى ؟
كأنه الخمر إبنة[1] العنب

قاتلك الله يا أخى ، فلقد
فضحتنا فى قبائل العرب

---

( ١ ) اضطر الشاعر إلى قطع همزة الوصل فى كلمة : ابنة .

ولم تخل أغراض الشعر التى رواها العماد الأصبهانى لشعراء عصره من المدح والفخر ، والعتب ، والتهانى وهى أغراض لم تزل موجودة فى كل عصر ، وإن كان آن للشعر العربى أن يتحلل منها اليوم فى عصر يتطلع إلى التطور والتجديد . ولقد كانت المدائح المروية يُقصد بها الخلفاء ، والأُمراء ، وعمال الولايات ، والوزراء ، والقادة . وهى بالطبع مما يغلب عليه المدح لغرض فى النفس ، أو لمنفعة ذاتية . وقليل منها المدح الصادق الذى كان نادرا فى ذلك الزمان .

على أن الشعراء الذين وفدوا على العماد الأصبهانى وخصوه بمدائحهم التى نشر بعضا منها فى كتابه ، لم يمدحوه — ولا نسيئ الظن — إلا قاصدين أن يهدى إليهم صنيعةً من جاهه ، تغنى عن صنيعة من ماله ، فلم يكن الرجل ذا مال ، ولا صاحب ضياع ، ولا رَب ثراء ، ولكنه كان نائبا للوزير ابن هبيرة فى واسط ، وكانت هذه النيابة عن الوزارة تتيح له أن يكون مرجوا . ومن هنا تسابق الشعراء إلى بابه ، وقصدوه بالمدائح وأبيات الثناء .

وإذا كانت « الخريدة » قد اشتملت على هجاء ، استكمالا لصورة الشعر العربى فى العراق فى القرن السادس الهجرى ، فإنها قد اشتملت على طائفة من شعر الألغاز الذى يبدو أنه كان بدعة فاشية فى ذلك العصر وحين يظهر لون من الأدب ، ويشتغل به الناس ، ويعطونه من اهتماماتهم فوق ما يستحق ، فإنه لا يلبث أن يشيع ، ويذيع ، ويقبل عليه الناس إقبالا شديدا حتى يكادوا أن يستهلكوه . ومن هنا شاعت الألغاز بين شعراء ذلك العصر ، يصنعونها شعرا — أو إن شئت الدقة فقل نظماً — ويقدمونها إلى أصدقائهم ومعارفهم ، وينتظرون حلها والإجابة عنها نظماً كذلك . وكثيرا ما كان يفتنُّ الشاعر فى عمل اللغز الشعرى ، والتعمية به ، والخفاء فيه ، حتى يضطر المجيب إلى كد الذهن وإعمال الفكر . ولعل مثالا واحدا من هذه الألغاز الشعرية يغنينا عن الإطالة فى لون من الشعر لا جمال فيه ولا خيال . فقد كتب الشاعر ابن أبي الصقر الشافعى لغزا فى « الدينار » يقول فيه .

وأى شىء طـــوله عرضه ⁕ أضحى لـــه عندك مقدارٌ ؟

دل عليـــه حسن طبع لـــــه
ففيـــــــه للعالم أوطار

تمسكـــه الكف ، ولا تشتكي
منـــــه احتراقا ، وبه نار

وكان للشاعر ابن أخت بعث باللغز إلى الأمير أبي الغيث البصري ، فقال في جوابه :

يا من أتانا ملغزا فكـــــــــره
الُّغــــــــز يستغني ويمتـــــــار

ألغزت في « الدينار » فامتزْ به
إن كنت من للعلم يمتـــــــــار

ويكفي أن نشير هنا إلى أن هذه الألغاز كانت في أشياء ماديَّة ومعنوية مما تشتمل عليه الحياة ، ويقع عليه البصر أو الظن ، مما لا يدخل تحت حصر . وقد اهتم الناس بها في ذلك العصر ، حتى لقد جمع فيها أبو المعالي الخطيري الكتبي كتاباً أسماه ( كتاب الإعجاز ، في الأحاجي والألغاز ) طالعه العماد الأصبهاني واختار بعضاً من ألغازه .

والإخوانيات كثيرة في أشعار الخريدة ، وهي ضرب من أغراض الشعر شاع وكثر حين كثرت الجماعات ، وازداد الاتصال والترابط بين الناس ، وهي وإن كانت لا تدخل في الأغراض السامية الرفيعة للشعر ، فهي تعبير صادق عن علاقات بين الشعراء ، يصور لنا كثيراً من أخلاقهم وسلوك حياتهم .

ولم تسلم أغراض الشعر في الخريدة من شعر الشكوى . وهو غرض يعبر عن مواجع الشعراء من بعض الظروف المحيطة بهم ، وغير الملائمة لهم ، كالشكوى من الزمان ، ومضايقات الأيام ، والشكوى من سوء الحظ ، ونكد الطالع ، والشكوى من حاكم ظالم ، أو بلد غير طيب ، أو صديق جائر ، أو جوٍّ غير مناسب ، أو علة طارئة ، أو عشرة منغصة ! ولعل من أطرف الشكاوى الشعرية ما نظمه الشاعر « أبو الحسن الهيتي » في الشكاة من بلدة «هيت» بالعراق وأهلها وذمهم . ولا بأس من إيراد بعض أبياتها حيث يقول :

منازل « هيتٍ » لا يوافقها العدل
إذا عَدَلَ السلطان جار بها الأهل

وما هي إلا بلـــــــدة جاهلية
أمرَّتْ على مَرِّ الزمان فما تحلو !

تجمَّع أهلوها على الخُلف والجفا
وبينهما أخذُ الحرائبِ والقتـــل

قلوبهمُ من جنــــــدل وصفائح
خُلقن وما فى العالمين لهم شكل

وأيمانهم غـــــــدر إذا حلفوا بها
وقولهمُ نكرٌ ، وموعدهمْ مطل

وإن عوتبوا فالعتب فيهم مضيع
وإن عذلوا يوماً فما ينفع العذل

أرى شيمتى تأبى بـــــلادى وأهلها
فيا ليت أنا لم يكن بيننا وصل !

وأقسم لولا بنتُ عم شفيقـــــةٌ
إذا غبتُ عنها نالها منهمُ ثقل

لأعدتُ أسفارى ، وفارقت منزلى
أولم يثننى كَرْم بأرضى ولا نخل ..

أما الشكوى من الكبر والاضطرار إلى استعمال العصا ، فقد عبر عنها شاعر من شعراء الخريدة بقوله :

أسوق نفسى بعصاً فى يـــــدى
تُبصر قدَّامى ولا خلفـــــــى

يا رب ! حتى الشيخ فى سَوقه
مخالف للعادة والعـــــرف[1] !

ما ألطف هذه الإشارة إلى مخالفة الشيخ لمألوف العادات ، حتى سوق العصا !!

وتُصور لنا شكوى الشاعر من « ابن يعيش » صاحب الديوان صورةً من الظلم الإدارى فى المجتمع العراقى . وهو نوع من الظلم كان سائدا فى ذلك الزمان .

ولن ندع شعر الشكوى يمر دون الإشارة إلى الأبيات الفكهة التى نظمها العماد الأصبهانى نفسه فى الشكاة من البق والبرغوث ! وقد نظمها ارتجالا حين بات ليلة « بنهر دقلى » وهو فى طريقه إلى بلدة عسكر مكرم فقال :

يا لحا الله ليلــــــةً قرصتنى
فى دياجيرها البراغيث قرصاً !

شربتْ بقُّهــــا دمى فتغنـــت
وبراغيثهـــــا تواجدن رقصاً !

قـــد تعريتُ من ثيابى لـــكربى
غير أنى لبست منهن قُمصــــا

كلما ازددتُ منعهن بحـــــرص
عن فراشى شرِهْن فازددن حرصاً

من براغيثَ خلتُهـــا طَافرات
طائرات جناحهـــا قد حُصا

(١) هكذا ورد : وصوابه : مخالف العادة والعرف بالإضافة لا بال التعريفية .

عَرَضت جيشَها الفريقـان حولى
وهى أوفى من أن تعـد وتحصى

لو غزا « سنجر » بها الغُز يوماً
لم يَدَع منهمو على الأرض شخصاً!

وكان العماد يظن أن المعنى هنا لم يُسبق إليه ، ولم يقله قائل ، إلى أن أنشده صديقه القاضى عبد المنعم بن مقبل الواسطى بيتين للشاعر العدل أبى على بن بختيار الواسطى فى المعنى نفسه ، وهو غناء البق لرقص البراغيث ، كما فى البيت الثانى ، فاعترف له بالسبق !

وتصادفنا فى أشعار الخريدة بعض النماذج القليلة من شعر الحنين إلى الوطن ، وما أجمل لو كان العماد أطال فيه ، فهو لون من الشعـر الصادق النفسىِّ المعبر عن واجد المرء الحقيقية ، وليس مجرد نظم أو رصف كلام . ومن نماذجه هنا ما قاله الشاعر أبو الفرج الواسطى :

كم ذا الوقوف بنا على الإبْل
أورد قلوصى ما أذى الأثْل

واعدل إلى ذات اليمين بنـا
واحطط بـربع بريكة رحلى

مغْنىً عفت آيات ملعبه
ومحت معالمـه يـد المحل

أودعت قلبى فى ربائبـه
وعقلت فى عرصاتـه عقلى

وبكيت حين رأيت ما صنعت
أيدى النوى بالربع والشمـل

أكبرته فوطئت تربتـه
بحشاى ، لا بمناسم الإبل

وطفقت أنشد فيه حين خـلا
منهم بما يُغرى ولا يُسلى

لا ابيضَّ لى فى الدهر بَعدهُم
يوم ، وهل دار بلا أهل ؟

ولعل أكثر أغراض الشعر اختيارا وجمعا فى الخريدة هى أغراض الغزل والنسيب ، والآداب والأخلاق ، والوصف واختيار العماد الأصبهانى للشعر الأخلاقى الرفيع يعكس لنا صورة من أخلاقه .

فقد كان الرجل كريما ، متواضعا ، ذا مروءة ونجدة . وطالما تمنى أن يحل مشكلات الشاكين ويجيب مطالبهم قبل أن يحلَّها الوزير ابنَ هبيرة الذى كان نائبا له . وله فى هذا المواقف المحمودة .

فحين وفد الشاعر «ابن الشريف الجليل» على الوزير ابن هبيرة شاكيا ومتظلما ، وأسمعه قصيدة فيها البيتان الآتيان :

أجِرْنى على الدهر فيما بقى
بقيت فما قد مضى قد مضى

فلستُ أبالى بسخط الزمان
وأنت ترانى بعين الرضا

اهتز لها كما اهتز الوزير ابن هبيرة ، وودّ لو أنه له مكنة ، أو أنه يستطيع إجازته أو إجارته .

ومن مختاراته الأخلاقية الزهدية ما أنشدهُ عن أبىّ تراب العكبرى » من قوله :

حالى بحمد الله حالٍ جيدُهُ
لكنه من كل حظ عاطلُ

ما قلت للأيام قول معاتب
فالرزق يدفع راحتى ويماطل

إلا وقالت لى مقالة واعظ :
الرزق مقسوم ، وحرصك باطل

ونماذجه فى شعر القناعة والزهد ، والرضا غير قليلة ، وهى تعكس أيضا جملة أخلاقه ،

ومنها ما رواه عن الشاعر المعلم أبى الأزهر الضحاك :

ما أنعم الله على عبده
بنعمة أوفى من العافيه

وكل من عوفى فى جسمه
فأنه فى عيشة راضيه

والمال حلو حسن جيد
على الفتى لكنه عاريه

وأسعدُ العالم بالمال من
أداه للآخرة الباقيـــه

ما أحسن الدنيا ! ولكنها
مع حسنها غادرة فانيه ...

ومن مرويات العماد الأصبهانى فى شعر عزة النفس ، وعدم الرضا بدون ، ما رواه عن الرئيس أبى سعيد بن واثق الأنبارى حيث أنشده لنفسه :

أظما ، وغدران الموارد جمة
حولى وأسغب والمطاعم دونى

وأعاف أدوان الرجال ، فأنه
لا يرتضى بالدون غير الدون

لا الفقر يخفض من تسامى ناظرى
فيغُضّ منه ، ولاالغنى يطغينى

وكذلك مارواه من شعر فى الاستغناء عن المخلوق بالخالق من شعر ابن أبى الصقر :

كل رزق ترجوه من مرزوق
يعتريه ضربٌ من التعويق

وأنا قائل — وأستغفر الله
مقال المجاز لا التحقيق

لست أرضى من فعل إبليس شيئا
غير ترك السجود للمخلوق !

أما ما رواه من شعر فى صلة ذوى القربى والرفق بهم والإحسان إليهم مهما أساءوا والعفو عنهم إذا أخطأوا فغير قليل القدر ، ومنه ما قاله ناصر الدولة بن حماد فى ابن خال له :

أخى : وابن خالى ! ما الذى كان بيننا
من الأمر حتى صرت تنفر من قربى ؟

ولو أننى يانصرُ رامت جوانحى
إساءة فعل فيك حاربها قلبى

ويدخل فى شعر القرابة والرحم الذى احتوته الخريدة ما دار بين الفقيهة الشاعرة أم على الرشيدة ، وبين ولدها الأديب على العبدى ، وقد كان غائبا فى بعض أسفاره فكتب إلى أمه قصيدة يبثها أشواقه يقول منها :

سيان إن عذروا فيكم وإن عذلوا
لأننى عن هواكم لست أنتقل

لا أكذب الله مالى — غير حبكم
والاستزادة من وجد بكم — شغل

وليس فى الناس لى — لو كان ينفعكم
أن تعلموا ذاك منى — غيرَ كم أمل

أشتاقكم وبودى لو يواصلنى
خيالكم ، لو بنوم كنت أكتحل

وقد صحبت أناسا ، واشترطت لكم
قلبى ، ويصحبهم جسمى وقد قبلوا

وربما قلت للواشى إلىَّ بكم
همُ الأحبة إن جاروا وإن عدلوا

صِلوا وصُدوا ، وجوروا ، واعدلوا ، وقفوا
عما أحب ، فعندى بعد محتمل

مهما فعلتم فمحمولٌ ومغتفر
وما أمرتم فمسموع ، وممتثل

وقد ردَّت عليه أمه بقصيدة تقول فيها :

لولا الأمانىُّ والتسويف والأمل
ما كان يكنُفُنى سهلٌ ولا جبل

وكلما اشتد بى نـــار تعذبنى ... فليس إلا دموع العين تنهمل

وقد تعللت أسباباً لرؤيتكم ... فكيف بى وبكم إن فاتت العلل ؟

أهذى بكم حسب ما أحيا ، فإن حضرت ... منى الوفاة وأوفى دونى الأجل

ناديت : لا تأخذوا ثأرى بهم هبةً ... هم الأحبةُ إن جاروا وإن عدلوا !

ولو أخذنا نعرض شعر الحكم والأخلاق والآداب فى الخريدة لطال بنا المجال فى معرض لا يحتمل الإطالة ، ولكنا ننتقل إلى غرض آخر من الشعر ، وهو الوصف ، وقد وقع للعماد منه نماذج جيدة ، ولعل من أجودها وصف السفينة للشاعر الأمير نجم الدولة بن أبى الجبر واسمه أحمد ابن أبى الفتوح ، وهذا الوصف هو بضعة من قصيدة طويلة بعث بها الشاعر الأمير إلى الحريرى صاحب المقامات ، وفيه يقول :

يأيها الرائح تنحو به ... هوجاء تنقضُّ انقضاض العقاب (١)

لم يرأم الفحـــل امَّها فى الفلا ... ولا عِراضا لقحت فى الضراب

ولا رعت حمضا ، ولا خلـــة ... يوما ، ولم تجتر بُهمى العذاب

ولا اعتقى الحـــالب أغبارها ... ولا رأت سقبا لهـــا فى السقـــاب

لا تشتكى الأين إذا ما اشتكت ... من الوجى الوجناء ذات الهباب

دهماء لم تلمس لهـــا أشطرا ... كلبيةً ، قد عصَّبتها اعتصـــاب

تنساب والتيـــار ذو حومة ... مثل الحباب الصل ، فوق الحباب

طالت على العود بأعوادهـــا ... والناب ، لكن ما لها قط نـــاب

---

( ١ ) أى أن هذه السفينة كالناقة السريعة ، ولكنها ليست حيوانا ، ولا رعت النبات الحامض ولا الحلو ولا نبات السهول ، ولا تشكو تعبا إذا ما شكت الناقة النشيطة ، وهى سوداء اللون ، تنساب فوق الماء انسياب الحيات فوق الرمال ، وقد استطالت على النوق المسنة ، ولكن ليس لها ناب كالأبل التى شبهها بها .

والقصيدة كلها مماوءة بالألفاظ الغريبة ولعله راعى مقتضى المقام بأنه أرسل بها ، وخص بنظمها الحريرى المشهور باللغة ووفرة الحصيلة اللغوية التى تدل عليها المقامات .

ويبدو أن الأمير الشاعر نجم الدولة هذا كان مغرما بالشعر الوصفى ، فقد بعث إلى صديق له هدية من الأقلام ، الواسطية ، وبعث معها أبياتا يقول فيها فى صفة الأقلام :

قد بعثنا بهـا رشاقا دِقـاقـا
كالقنا فى لدونة واستـواء
قطعت عندما طلوع سهيـل
إذ وجدنا طيبا لحلو الهـواء
لم تغادَر حتى تجف . ولكن
قطعوها ، فيها بقية مـاء
من قصار ومن طوال تضاهى
فى تمام أصابع العـذراء
تركتْ بعضها كما خلق الله
وبعضا علتـه بالحنـاء

فابرها ، ثمت اسقها النقس[1] واكتب
بسواد منـه على بيضاء
وقد أُتيح لهذا الشاعر الأميريوما أن
يرى معركة قادتها قائد اسمه « عفيف » ،
وقد خرج عليه بعض الخارجين المتطرفين
إلى واسط ، فهزمه وعبر فى الماء وراءه ،
فقال الشاعر :

فبات جيش العدا فى « واسط » وجلا
منه يحاذر بأسا غير مأمون
فانصاع للجانب الشرقى منهزما
من ليث غاب بشدى الحرب ملبون
تصوروا أن عبر النهر يعجزنا
عنهم ، لظن بغير الحق مظنون
هناك قام عفيف بالذى قعدت
عنه الرجال برأى غير موهون
وما همُ بالكماة الغلب قد لبست
من كل زغف دلاص السرد موضون
والخيل فى العبر تتلوهم مبادرة
فى كل فلك كركن الطود مشحون
كأنما قيل : ياريح ! اسكنى بهم
ولا تعرَّض لهم يابرد كانون

---

(١) النقس بالقاف هو الحبر .

ولم يعدم المجتمع العراقى فى العصر الذى عاش فيه العماد الأصبهانى وسجَّلَ شعره أن يجد بعض الشعراء العاكفين على الحب ، القائمين فى محرابه ، المغنين بألحانه ، كالشاعر الرئيس أبى الفرج الواسطى الذى كان المغنون يتغنون بشعره فى ذلك الزمان . وقد سجلت له الخريدة بعض غزله الذى يقول فيه :

ألا ياحماماتِ تجاوبن بالضحى
كشفتُنَّ مكنونى ، فأعلنت بالشكوى
إليكن عنى ياحماماتٍ ضارج
عدا كنَّ أشجانى وما بَى من البلوى
ترفقن بى فيما بكنَّ من الهوى
كما بى ، لا وجدَّ كوجدى بمن أهوى
نقضت ليالينا « بليت ، « وعلَّنا »
« وسوف » ، وما أحبدت علىَّ المنى جدوى
فلا اليأس يُسلى لو تعهدت سلوة
ولاالصبر تُلْفَى دونه الغاية القصوى !

وكما لشاعر أبى الغنائم بن المعلم الذى كان له أشعار يحدو بها الحداة ، ويتغنى بها أرباب الغناء فى العراق ، كقصيدته فى مدح الأمير هندى الكردى ، وقد افتتحها بأرق النسيب ، مما جعلها دائرة على أفواه العاشقين ، وألسنة المحبين ، وفيها يقول :

تنبهى يا عذباتِ الرنـــد
كم ذا الكرى ؟ هبَّ نسيم نجد!
مر على الروض وجاء سَحَـــر ا
يسحب بُرْدَى أرجَ وبـــرد
حتى إذا عانقتُ منـــه نفحـــة
عاد سمومـــا ، والغرام يُعدى
واعجبا منِّىَ ! أمتشفى الصبـــا
وما تزيد النـــارُ غير وقـــدِ
أعلل القلب ببـــان رامة
وما يتوب غُصُنٌ عن قدِّ
وأسأل الربع ومن لى لو وعى
رجْع الكلام ، أو سخا بردِّ ؟
أأقتضى النوحَ حمامـــاتِ اللوى؟
هيهات ! ما عند اللوى ما عندى

وبعد ! فهذه جولة مع « خريدة القصر » العراقية فى أغراض شعرها ، وفنون قولها وهى تلك الخزانة الثمينة التى جمعها

أديب شاعر مؤرخ منصف ، وحققها باحث عراقى شاعر ناثر جميل الخط هو الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، الذى يستحق أن يقال فيه ما قاله الرئيس ابن المعلم ـ من شعراء الخريدة ـ فى أبى غانم اللؤلؤى :

فى حلبة الشعر المثقف لو جرى
معه امرؤُ القيس بن حُجْرٍ قصَّرا
أو لو جرى قلم « ابن مقلة » طالبا
فى الخط شأو يراعِهِ لتعثرا ...

**محمد عبد الغنى حسن**